فتوى توحيد الآذان
من كتشنر الإنجليزي إلى وولش الأمريكي

بقلم الأستاذ؛ هاني السباعي
مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية

لقد كـان المتنــبي على قــدر كبــير من الصــدق في وصفه للحالة المصرية:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

لقد استيقظ ضـمير وزارة الأوقـاف المصـرية فجـأة وشرعت في تجهـيز حملة كـبرى لاجتيـاح المـآذن النشـاز الـتي تعلو سـماء المحروسة وضم أصـوات المـؤذنين في صوت واحد وعلى نغمة واحدة ومن ثم العودة إلى شعيرة التوحيد (توحيد الآذان) التي أقسـدها هـؤلاء الشـركاء (كل مسـاجد القـاهرة) ما عـدا المسـجد الـذي سـتتوحد فيها المـآذن لكي يكـون أسـوة تقتـدي به سـائر مسـاجد مصر ومنائرها الآبقة!

ذكرنا هذا الصنيع ما زُعم أن الخليفة هارون الرشــيد أمر المغــنين أن يختــاروا له مائة صــوت فاختاروهــا، ثم أمــرهم باختيــار عشــرة منها فاختاروهــا، ثم أمــرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا.. وفي رواية أن المغنين أجمعــوا على صوت واحد من هذه الثلاثة كما حكى الأصفهاني في كتابه الأغاني وإن كان لنا تحفظات عليه.. هكـذا قد يكـون دار في أدمغة القـائمين على وزارة الأوقــاف أن يوحــدوا أصــوات المــؤذنين في صــوت واحد على غــرار مــزاعم صـاحب الأغـاني.. ومن ثم يرتـاح السـاهرون والسـاهرات وهم ينـــامون على صـــوت عنـــدليب يـــؤذن بالنهاوند أو البيـاتي!! رغم علم وزارة الأوقـاف أن هـؤلاء المتضـايقين من أصوات المؤذنين لا يدخلون بيوتهم غالباً إلا بعد انتهـاء صـلاة الفجر ومن بقي منهم في بيته فـإن رأسه أثقل من أن تسمع أصوات المآذن نتيجة للأدخنة الزرقـاء والحمـراء التي عشعشت في أمخاخهم!

قد يقول قائل ما علاقة ذلك بعنوان المقالة؟!

العلاقة ستتضح عبر النقاط التالية:

صاحب الفتوى وزير الأوقاف:

لقد تـولى كـبر هـذه الفتـوى الـتي سـأطلق عليها (الحملة) غير المسبوقة في تاريخ مصـر؛ فضـيلة الـدكتور محمــود حمــدي زقــزوق.. وقد كــان منذ تعيينه وزيــراً للأوقــاف في عــام 1996م حـتى وقتنا الحاضر في حلف شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوي الذي تحـول الأزهر في عهـــــده إلى زاوية صـــــغيرة يطؤها كل من هب ودب! والدكتور حمدي زقزوق من مواليد محافظة الدقهلية سنة 1933م وحاصل على درجة الـدكتوراه في الفلسـفة من جامعة ميونخ بألمانيا ومتزوج من سيدة ألمانيـة. وله عـدة كتب وأبحـاث وفعاليـات لتسـويق الإسـلام كي يرضى عنا الغرب الذي لا ولن يرضى حتى يذوب الإسلام في الغـرب ويكون نسياً منسياً!

لكن التسـاؤل المتبـادر إلى الـذهن لمـاذا أثـار وزير الأوقــاف هــذه الحملة (توحيد الآذان) في هــذه الأيــام الحوالك والأمة بهـذا الضـعف؟! هل هـذه دعـوى مـبرأة؟ أليست لها علاقة بالأجنــدة الأمريكية من تجفيف منــابع التدين وتغيير مناهج التعليم.. والحملة المسـعورة على ما يسمى بمحاربة الإرهـاب أعـني مكافحة الإسلام؟! أم أنها بحق فتوى باطلة يراد بها باطــل؟! كل ذلك يقودنا إلى أن نرجع القهقــرى لنلتقط الخيط من بداية القــرن الميلادي المنصرم على النحو التالي:

أولا: كتشنر وطلب إنشاء وزارة للأوقاف:

بعد أن احتل الإنجلــيز مصر عــام 1882م أعملــوا عقـولهم للتفكـير في كيفية التحكم في العمـود الفقـري الــذي يمد المجاهــدين والثــوار في الخــروج عليهم ومقــاومتهم فوجــدوا أن محمد علي باشا حــاكم مصر (1805 – 1848م) لم يقض على الأوقاف تماماً ولا زالت هنـاك بقية من الإسـتقلال المـادي لـدى الفقهـاء الـذين يشرفون على أوقـاف المسـلمين الـتي حبسـها أجـدادهم

وآبـاؤهم للإنفـاق على كافة وجـوه الـبر ومنها طلبة العلم والمعوزين والمجاهدين.

ولما كانت مصر في ذلك الوقت تابعة رسمياً للدولة العثمانية لم يشأ الإنجلـــيز في أول الأمر أن يعلنـــوا أنهم محتلـــون مصر بصــفة رســمية لكنهم قـــرروا أن الفرصة مواتية خاصة بعد عـــزل الســـلطان عبد الحميد وســيطرة حزب الإتحاد والترقي العلماني على مقـادير الأمـور.. فتم تعيين السير (هربرت كتشنر المتوفى غرقــاً في 1916م) كان يشـغل منصب وزير الحربية البريطانية وكـان سـردار الجيش المصـــري وهو الـــذي حـــارب جيش المهـــدي في السودان إذ أنه لما استولى على أم درمـان سـنة 1899م رأى ألا يبقي لـــذكرى المهـــدي تعلقـــاً في قلـــوب قبائل السودان، فأمر بهدم قبته ونبش قبره وبعثرت عظامه في النيل وبعث بجمجمته إلى دار التحف البريطانية تمامـــــاً مثلما بعث الفرنسيون جمجمة البطل سليمان الحلبي إلى متحف بـاريس.. ونظـراً لدمويته هـذا الكتشـنر السـفاح وإجرامه في حق المسلمين أعجبت به إنجلترا بفوزه على دراويش السودان فمنحته لقب (لورد الخرطوم).. واختـير فيما بعد كمندوب سام بعد السـير (دون جورسـت) الـذي كان خلفا للسير(أفـرين بـيرنج) الشـهير بـاللورد كرومـر.. المهم أن اللورد كتشنر تقرب إلى شيخ الإسـلام والصـدر الأعظم في الأســـتانة واســـتطاع أن يحصل منهما على الموافقة على أن تكون بمصر وزارة للأوقاف.

وقد لجأ كتشـــنر إلى البـــاب العـــالي لأنه يعلم أن الخـديوي عبـاس لن يوافق على هـذا الطلب وقد يحـرض العلمـاء والساسة ضد الإنجلـيز لـذلك فقد استصـدر الأمر من البـاب العـالي حـتى لا يكـون في مقـدور العلمـاء أن يعترضوا وللأسف الشديد تحقق لكتشنر ما أراد إذ نشـرت الوقـــائع المصـــري في 21 ذي الحجة 1331هـــ الموافق 1913م نص مرسوم الباب العالي بإنشاء نظارة للأوقـاف (وزارة) بدلاً من الديوان الـذي كـان يشـرف على أوقـاف المسلمين في ذلك الوقت.

وهكذا تحول الديوان إلى وزارة بطلب من المنـدوب البريطاني لمصر كتشـنر بـزعم الإصلاح والتنظيم الإداري والمؤسسي للبلاد.. لكن الحقيقة أن إنجلترا كـان في نيتها أن تســتقل بمصر وتوضع مصر تحت الإنتـــداب وهـــذا ما حدث إذ صارت مصر تحت الإنتداب الإنجليزي رسـمياً في 1914م ومن ثم تكـون وزارة الأوقـاف قد خضـعت تحت

سـيطرة الإحتلال ويسـهل السـيطرة عليها والقضـاء على اسـتقلالية الأوقـاف وبالتـالي إحكـام السـيطرة على كافة المؤسسـات والمرافق الـتي كـانت تتبع الأوقـاف ومنها التعليم الأزهري والكتاتيب والمساجد.

ثانياً: ديفيد وولش وقرار توحيد الآذان:

يعتـبر السـفير الأمـريكي (ديفيد وولش) من أكـثر السـفراء الأمريكـان تـدخلاً في شـئون الدولة بطريقة سـافرة.. طبعـاً كلهم من قبل كـانوا يتـدخلون لكن ليس بهذه الطريقة الفجـة؛ فـنراه يـراقب كل المؤسسـات في مصر ويضع أنفه في كل صـغيرة وكبـيرة! حـتى المقـالات الصحفية يعترض عليها ورغم أنه شخص غير مرغوب فيها من الشـعب المصـري فقط إلا أنه يتصـرف بكل عنجهية كمنـدوب احتلال وليس سـفيراً كما يفـترض! وإلا كيف نفسر تعيينه خمس مستشـارين في الهيئة العليا الـتي تشـرف على المنـاهج في وزارة التعليم؟! تحت مسـمى الإصلاح حيث صار لهذا الـ (وولش) مستشـار أو أكـثر في عدة وزارات كبرى وصغرى..

وبعد كل ذلك يـزعم مشـايخنا الأفاضل أن دعـوتهم بتوحيد الآذان في القاهرة انطلاقاً من دعـوة التوحيـد! ولا علاقة لها بضـغوط أمريكية وأنهم اسـتندوا إلى آراء لمـذاهب الأئمة الأربعة (أبو حنيفة + مالك +الشـافعي + أحمد بن حنبـل).. ونحن نربأ بالأئمة الأربعة و كل أئمة الإسلام أن يكـون مـرادهم هو مـراد الأئمة الأربعة الجـدد؛ أصحاب فتـوى توحيد الآذان: (شـيخ زقـزوق + شـيخ على جمعة مفـتي الـديار + شـيخ نصر فريد واصل المفـتي الأسبق + ورابعهم شيخهم شـيخ الأزهر طنطـاوي).. فعلاً إنها فتوى باطلة يراد بها باطل!

عودة إلى ديفيد وكتشنر:

ومن الموافقـات العجيبة أن مصر في ذلك الـوقت كانت تحت الإنتداب الإنجليزي وأن الذي قـام بتـأميم هـذا الشـريان الحيـوي بـزعم الإصلاح هو المنـدوب السـامي كتشـنر!.. ثم يسـير الزمـان في عجلته والشـخوص قد تغـيرت لكن المكـان هو ذاته حـتى وصـلنا إلى المنـدوب الأمـريكي السـامي ديفيد وولش! الـذي لم يتقـدم بطلب طبعاً مثل سلفه البريطاني كتشـنر بل مجـرد إشـارة وهو

يعلم أن سدنة النظام المصري لديهم قرون استشعار يعرفون بها أين تتجه البوصلة الأمريكية فيسبقونها!!

لكن الفارق أن أحمد حشمت باشا الذي كان أول وزير للأوقاف منذ عام 1913م كان مغلوباً على أمره ولم يكن يدور في خلده عندما عينته محكمة مصر الشرعية بدلاً من إبرهيم نجيب باشا آخر مدير لديوان الأوقاف.. لم يكن يدور في خلده أن وزارة الأوقاف ستصل إلى هذا الهوان على يد الدكتور زقزوق وأصحاب الفضيلة!

كان أولى بوزير الأوقاف:

كنا نود أن يتوجه وزير الأوقاف بحملته الميمونة إلى مجلس الدولة يطالبهم بإلغاء كل القوانين المخالفة للشريعة الإسلامية.. كنا نود أن يطالب الدولة ببطلان قانون 180 لسنة 1952م الذي ألغى الوقف الأهلي.

كنا نود أن يطالب الدولة بأن تساوى أوقاف المسلمين مع أوقاف نصارى مصر أليس هذا تمييزاً عنصرياً أعني قانون 547 لسنة 1953م الذي سلب حق الواقف في إدارة وقفه هذا القانون الذي استولى على أموال الناس بالباطل.. في حين استثنى القانون 264 لسنة 1960م أوقاف النصارى.

هلا امتطيتم خيولكم واستجمعتم كل العمائم الموقرة وتوجهتم نحو قصر العروبة لتستردوا أراضي المسلمين التي نهبت بالقانون 152 لسنة 1957م وتم تسليمها إلى ما يسمى بالإصلاح الزراعي الذي أفسده وزير زراعتكم الهمام فتسبب بتفشى الأمراض الخبيثة وإصابة حوالي 40% من الشعب المصري بالوباء الكبدي وما خفي من أمراض أدهى وأمر.

لقد صدق الشيخ صلاح أبو إسماعيل عندما قال كلمته الشهيرة وهي ثابتة في مضبطة مجلس الشعب بتاريخ 19 فبراير1980م أثناء استجواب وزير الأوقاف الأسبق عبد المنعم النمر عندما وصف ما حصل للأوقاف (بأنه تدويخ وبلطجة)، وقال: (كأن أوقاف المساجد أوقاف لعدو وقع تحت أيدينا).. نعم هكذا يتصرف أصحاب الفضيلة المعينون من قبل أنظمة لا ترقب فينا إلا ولا ذمة.

صفوة القول:

هنـــــاك سياسة منظمة انتهجها الإحتلال القـــــديم (كتشـــنرالإنجليزي) وأورثها للإحتلال الجديد (ديفيد وولش الأمـريكي) بغية القضـاء على هوية الأمة وتقطيع أوصـالها الحيوية.

لقد صـار تـأميم المسـاجد الأهلية وحـتى التابعة إلى الجمعية الشـــرعية وغيرها من جمعيـــات دعوية خيرية سياسة تهـــدف وزارة الأوقـــاف من ورائها تكميم أفـــواه الدعاة الحقيقيين وتعيين دعاة مبرمجين أمنيا ولديهم صك حسن سير وسلوك من شـيخ الإسـلام رئيس مبـاحث أمن الدولـــة! وإلا كيف نفسر اســـتمرار وزراة الأوقـــاف في الإستيلاء على المساد الأهلية وافتخار وزير الأوقاف أنه قد ضم أعـــــداداً جديـــــدة إلى من المســــاجد إلى أرض المحروســـة! ليته شن هـــذه الحملة لاســـترداد مدينة أم الرشـراش وسـيناء المنزوعة السـلاح إلى أرض مصر من العـود الحقيقي لأمة الإسـلام!! لكنهم بـالطبع لا يفعلـون! ففي يوليو 2004م أصـدر الـدكتور زقـزوق قـراراً بضم 2500 مسجد أهلي وزاوية في مختلف أنحاء مصر.. علماً أنه عندما تولى الوزارة 1996م كان وزارة الأوقاف يتبعها 24 ألف مسـجد وتشـرف على 30 ألف مســجد غـــير حكومي طوعاً أو كرها وازداد تـاميم المسـاجد والإسـتيلاء عليها بعد أحـداث سـبتمبر 2001م تلبية لرغبة المنـدوب الأمريكي في القاهرة ديفيد وولش!

هنـــاك بعض المصـــطلحات تعرضت لعوامل التعرية السياسة فتغـــير مـــدلولها إلى القبح والنفـــور مثل كلمة (ســلام) تعـــني على البديهة طبقـــاً للقـــاموس الإعلامي والسياسي المهيمن على مقاليد العالم (سـلام = انبطـاح = هـــوان = الرضا بالدنيـــة)، (معتـــدل = انهـــزامي = منحرف).. أما (أوقاف = وقف حـال = خـراب المسـاجد = أكل أموال الناس بالباطل)..

هل اسـتيقظت ضـمائر علمائنا الأجلاء لتغيـير المنكر والقضـــاء على الفســـاد الضـــارب بجـــذوره في كافة مؤسسات الدولة.

الشـعب المصـري في أمس الحاجة إلى أن تكونـوا في طليعة حملة تحطم الحواجز التي وضعت على الحدود

المصرية الفلسطينية لنجدة شعب فلسطين الذي يذبح ببركة زعمائكم وزياراتهم المشؤومة لشارون وعصابته.

كنا نود أن توحدوا كلمتكم يا أصحاب الفضيلة وتدينوا الإحتلال الأمريكي لعاصمة الرشيد وتستنهضوا الأمة للقيام بواجب الجهاد الذي هو ثابت بالقرآن والسنة والإجماع وثابت بفتاوى أصحاب المذاهب الأربعة! للدفاع عن حياض المسلمين المنتهبة بدلاً من هذه الحملة الخائبة إلتي ما أريد بها إلا وجه ديفيد وولش وأسياده في البيت الأبيض!

كنا نود أن تطالبوا حكومتكم السنية بترشيد القنوات العشر المحلية إلى واحدة أواثنتين تلكم القنوات التي لا تبث إلا الفساد والخلاعة وكان من ثمرتها عبادة الشيطان وظهور الشواذ علانية في أرض الأزهر الذي ضيعتم مهابته من قلوب الناس.

حسبناكم قد توجهتم بحملة تتوحدون فيها لتقتحموا السجون العمومية ومقار أمن الدولة التي تخرج من أقبيتها أرواح قوافل الشهداء الذي يموتون من جراء التعذيب المنظم.. أكثر من 60 ألف مظلوم موزعين على 25 سجناً في أرجاء أرض الكنانة!.. هلا وجهتم حملتكم لإطلاق سراحهم وإدخال البسمة على شفاه أطفالهم وذويهم. أليس هؤلاء موحدين مثلكم؟!

يا أصحاب الفضيلة يا ملح البلد!

هلا أفتيتم لنا بكفيفة القضاء على البطالة وكيف يخرج الناس من هذا الضنك؟ ألم ترق قلوبكم لهذا الموظف الذي قتل أولاده لأنه لا يستطيع أن يوفر لأولاده مصارف المدارس؟! هلا توجهتم بحملة لحل مشكلة الشباب العاطل عن العمل الذي وصل إلى إلى أكثر من 40%.

هلا وحدتم جهودكم يا دعاة التوحيد بحملة للقضاء على المواخير وأندية القمار والعوامات التي ترتكب فيها المنكرات وهي تمخر عباب نيل مصر.

هلا قمتم بحملة لاستنهاض الأمة للقضاء على أس الفساد المتمثل في نظام متآمر على شعبه وعلى الأمة بأسرها في فلسطين والعراق وأفغانستان وها هي ذي

السـودان على وشك التقسـيم ببركة سـكوت مشـايخنا الأجلاء جـداً الـذين تركـوا الحكـام يعيثـون في الأرض فساداً.. وانتبهـوا فقط للإسـتيلاء على مسـجد يخطب فيه داعية لا يرضى عنه مخـبر حقـير! أو حكاية توحيد الآذان التي شغلتم بها الناس مؤخراً..

نخشى أن تطالبوا المصـلين في حملتكم القادمة أن يحضر كل مصل سـماعة يضـعها على أذنيه لأن البث سـيكون مباشـراً والإمـام المعين الـذي سـيؤم المصـلين الشيخ المتوفى عبر الإثير!! كما نخشى أن تصدروا فتـوى بمشـروعية أن تصـطف أي جماعة من المصـلين لأداء الصـلاة خلف (الراديـو) ولا مـانع من الـذهاب إلى المسـاجد!! ومن أصر على أداء الصـلاة في المسـجد فيجب وضع كـواتيم صـوت زجاجية على أبـواب المسـاجد وشرفاته ونوافـذه حـتى لا نـزعج الخواجة ديفيد وبطانتـه! ولله في مصر وخلقه شؤون!